صور الخلاص من الواقع في الخطاب الروائي اليمني المعاصر

أ.م.د.مشتاق عباس معن
د.فاطمة كريم رسن
جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد

تمهيد

(١)

لم يكن الواقع المعيش لكائنية البشر منسجماً تمام الانسجام وطموحات الذوات الكبيرة؛ فقد احتدّ النزاع من أجل البقاء بين الإنسان و ما حوله منذ الانفتاق التكوينيّ له على مساحة المعمورة .

ومن الطبيعيّ أن يبحث الإنسان عن صور لخلاصه من ديمومة الخوف في ذاته؛ إذ تفاقمت صوره في الذات حتى تحوّلت إلى مرض نفسيّ – اجتماعيّ يطغى على حنايا المدركات السلوكية الحاكمة لبوصلة التعامل البشريّ مع ذاته و الآخر .

ودعا ذلك التفاقمُ منازعَ الخشية من المجهول و خبايا الغيب، إلى أن تتكوّر الذات على نفسها؛ لتفرز مرضًا نفسيًا سمّاه علماء النفس بـ " الخُواف : Phobia " وعرّفوه بأنه (خوف مبالغ فيه ومرض من نوع المثيرات و الأوضاع ، كالخطر الذي يتوهمه الشخص و لا يمكنه وقفه، أو السيطرة عليه ، نتيجة أفعال شرطية لتجارب سابقة أو غير ذلك من العوامل النفسية.

وقد تكون هذه المخاوف من أشياءَ خارجيةٍ مثل الخوف من الظلام أو الأماكن الضيقة، أو أشياء خارجية كالخوف من المرض، أو من الإصابة بالجنون. ومثل هذه الحالات تحتاج إلى علاج نفسيّ و اجتماعيّ) [١].

و سعى الفرد إلى التصالح مع ما حوله من محيط البشر، ولم يكن ذلك التصالح بالأمر الهين، بل كان قاسيًا على البشر بحيث تمثّل بقتل الآخر من أجل سلامة الذات ، وذلك بـ "تقديم القرابين " إلى الآلهة من أجل الحفاظ على الحياة .

واستمرت صور التصالح بالتنوع و الاتساع في عقيدة الفرد الخوافي من مكنونات الآتي و غيابة الغيب، حتى استحال الأمر إلى نفور عن الصلح، نحو البحث عن صور للخلاص بـ " الهروب من الواقع ".

وقد كانت ردّة الفعل هذه نابعة من قساوة الواقع على الذات، فهي دومًا تسعى الى التصالح مع من حولها، لكن المحيط يشدّد بقساوته و ضراوته بالضغوط المستمرة، وهو أمر دعا منفذ تصفية الآخر لضمان بقاء الذات : لأن يتحرّك من معمار الآخر إلى معمار الذات، بحيث اصطدمت الذات مع حاملها لتسبب انفصامًا حادًّا بينهما.

(٢)

و يمكن إجمال هذه السلسة التعاقبية لصور تعامل الذات مع مَنْ حولها ، و ما حولها على مرحلتين :

١- مرحلة " الطوطم " :

الخشية من الغيب و الظواهر الطبيعية المخيفة ، فضلاً على حركات الكائنات الخفية ، كلّ ذلك دعا البشر إلى البحث عن صور التصالح والمحيط الذي يحيط بهم .

فـ (منذ أن مارس الإنسان البدائي نشاطاته على الأرض ، كان يحاول التصالح مع ذاته، أو مع الشخص الآخر داخله ، فكان يؤمن بهواجسه و مشاعره الداخلية أيًّا كانت تجسيداتها .

ومن أجل ذلك يميل ميلاً شديدًا إلى لا وعيه، أو لا شعوره ، فعندما يشعر أن الطبيعة أقوى منه أو أكبر منه يعبدها ، أو يقدسها أي يحيلها إلى الغيب و قراره . ومن هنا نشأ مفهوم الطوطم ، كما نشأت الأسطورة و تعددت الآلهة) [٢].

أي إن الإنسان سعى بكل ما أُوتي من قوة إلى التصالح مع مَنْ حوله ، وما حوله ، بحيث كان يضحّي بأشياء كثيرة من أجل ضمان سلامة الذات ، وهناءة البال .

٢- مرحلة " البطل السلبي " :

إن الصراع بين المدنية الحادّة و المتحيزين فيها ، لصراع كبير و قاسٍ على الذوات في الوقت نفسه ؛ لأنها تتطلب جهدًا كبيرًا من البشر للحاق بمتطلبات الحياة المدنية ، و حاجاتها .

وقد أدى هذا الصراع إلى افتقاد الإنسان كثيرًا من قيمه الروحية ، و أخذت عواطفه و قيمه و أخلاقياته تتصلّب شيئًا فشيئًا ، حتى تحوّل الإنسان من كائن حيّ شعوريّ حركيّ ، إلى آلة ماديّة تتحرك بالمنفعة و المصالح حديدية الشعور بحيث أصبح البشر كـ " الروبوت : الإنسان الآلي " لا يتحركون إلا بمكابس و أزرار توجههم إلى حيث منابع الاحتياج ، و لا صلة له بمَنْ حولهم ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

وهو أمر وصفه المفكرون بـ (أنها لإحدى اللعنات على الإنسان الحديث أن يعاني العديد من البشر من نفس الشخص المنقسمة على نفسها) [٣].

(٣)

أنتج هذا الأمر سلوكية تعاملية حادّة أفضت بسعي الفرد الى " البحث عن صور الخلاص " ؛ لأن (الهرب خارج الواقع الشاق على النفس لا يمكن إلا أن يتمخض عن شيء من الهناء ، حتى ولو أفضى إلى تلك الحالة التي نسميّها بالمرض لما تنزله من ضرر و أذى بالشروط العامة للوجود) [٤].

وقد ضمّن الأدباء هذه الصور في نتاجاتهم ؛ لأنها تحاول أن تخلق عوالم موازية لعوالم الواقع المعيش ، وقد وسم المفكرون الماركسيون هذا النوع من الشخوص بـ " الأبطال السلبيين أو الإشكاليين " ذلك أنهم يهربون من الواقع و لا يسعون الى مواجهة .

إضافة إلى ذلك ، فهي (شخصية جبلت على التنازل عن القيم الفاضلة ، بل تعدت ذلك إلى أن تدوس عليها و تصعد على أشلاء الضمير لتحقيق أطماعها و هي تؤيد السائد ، و تستغل كافة الظروف لمصلحتها وهي بكلّ تلك المعاني تقترب من معنى Artic Hero أي اللابطل أو الشخصية غير النبيلة وهي بهذا تعبر عن واقعها المتفسخ و المشوّه بما يجري فيه من تغيرات اجتماعية و اقتصادية و تحولات عميقة أخطرها اهتزاز القيم و غياب الفواصل بين الحق و الباطل) [٥].

وقد حدد الدكتور باسم حميد صور الخلاص بثلاثة أمور؛ لخصها بقوله : (و بذلك يدعو النقد الماركسي إلى أدب واقعي .. أيديولوجي ، لا وجود فيه للهرب من الواقع ، مهما كان المستوى الفنّيّ لهذا الأدب الهارب .

إن مرحلة الثورة الصناعية ، وما خلفته من نظام رأسمالي متطور ، أقضت مضجع الإنسان الحديث ، في الوقت نفسه يأبى أن يعود للمصالحة مع ذاته على طريقة الإنسان البدائي ... فماذا يفعل ؟! .

بدأ يبتدع منافذ نفسية تخفف عنه وطأة ضغط الواقع المادّيّ ، و تعمل على خلق تصالح بين الوعي و اللاوعي ، بعد مسيرة تفاوضية منهكة .

إن هذه المنافذ النفسية تعود إلى ثلاثة حقول إنسانية ، الأول هو الحقل السيكولوجي ، و الثاني هو الحقل الميثولوجي ، و الثالث هو الحقل الدينيّ ، وكلّ هذه المنافذ التي تخرج من أعماق اللاوعي و تشكّل مساحة مهمة منه تعامل معها الإنسان الحديث بوصفها معادلاً نفسيًّا عن الكبت الذي يتعرض له نتيجة مختلف ضغوط الواقع عليه ، وقد عوّل عليها كثيرًا في سبيل الراحة النفسية) [٦].

ولو دققنا في أساليب المبدعين في التعبير عن منافذ خلاصهم ، لوجدناها تفوق ما ذكره الدكتور باسم حميد ؛ لأن تعداده أخلّ بالجانب الخياليّ ولا سيما " الخيال العلميّ " ، وعليه نرى صور الخلاص من الواقع المرير تتحدد بأربعة منافذ لا ثلاثة؛ مفادها :

- المنفذ النفسيّ .
- المنفذ الميثولوجيّ .
- المنفذ الدينيّ .
- منفذ الخيال العلميّ .

و سنقف في دراستنا هذه على المنفذين الأخيرين ، تبعاً الى تصويرات المعمار السرديّ في الخطاب الروائيّ اليمنيّ .

المنفذ الأول :

((الخلاص الدينيّ ورؤى التغيير))

لم يكن هذا النمط جديدًا على هيكلية الإنتاج السرديّ في العالم العربيّ أو الغربيّ ، بل كان شائعًا معروفًا ، ولعل نصّ " مأساة واق الواق " للشهيد الأديب اليمنيّ " محمد محمود الزبيري " من أكثر نصوص الخطاب الروائيّ اليمني التصاقًا به في صياغته لمعمار سرده .

ولم يكن نصّ " مأساة واق الواق " نصًّا تقليديًا – كما يصفه بعض النقاد – ، بل كان نصًّا يحمل بين حناياه كثيرًا من منازع التجديد ، وذلك يعود : إلى خبرة الكاتب الإبداعية و الفكرية ، ناهيك عن مخبر تجاربه العريض؛ فهو :

- شاعر كبير .
- مجاهد ذو قاعدة شعبية كبيرة .
- متعلم في زمن قلّ فيه المتعلمون .

- رجل دين و داعية جهاد .
- رجل تنويريّ .

كلّ هذه السمات و غيرها من الإمكانات النتاجية و التأليفية و الفكرية التي تمتع بها هذا الرجل ، حدت به لأن يكون مجدّدًا في الفكر و الإبداع .

فنصّه " مأساة واق الواق " مبتنٍ على عدّة آليات بنائية عدة و مرامٍ علامية ؛ منها :

١- **البُعد الميثولوجي** : تحقق هذا البُعد بالعنوان " واق الواق " فمن المعروف أن هذه العبارة تطلق على حيز مكانيّ أسطوريّ خرافيّ ، يستقرّ في المخيال الشعبيّ ، و لا حقيقة جغرافية له على خريطة العالم البشريّ .

إذ حاول الزبيري أن يعقد صلة بين " الواقع المعيش " و " مخيال الأسطورة " ؛ لأن الإنسان منذ مراحله التكوينية الأولى (لجأ إلى ... الأسطورة كوسيلة لإدراك الحياة ، أو بهدف " تأكيد طبيعة الفعل الإنساني " – كما يقول العالم الأنثروبولوجي الكبير ليفي شتراوس – منذ ذلك الوقت و الأسطورة تلعب دورًا حاسمًا في تشكيل الرؤية الإنسانية للواقع ، حيث تعدّ بانفتاحها الدائم على عالمه ، أمنية في التقاط الأسرار التي تختفي تحت سطحه الظاهر ، و دؤوبة على توسيع أبعاده و مدارجه ، و تأصيل الوعي به .

و الواقع و الأسطورة عنصران لا ينفصمان عن حركة النموّ الإبداعيّ عند الإنسان في كل أشكاله " الشعر و الرواية و القصة و المسرح " ، بل إنهما على العكس من ذلك يتداخلان و يمتزجان أحيانًا في نسيج واحد على أكثر من مستوى .

وممّا هو جدير بالذكر أن وظيفة الأسطورة – عند يونج – تكمن في اختلاف العنصر الأسطوري بشكل جوهري عن العنصر التاريخيّ ؛ إذ يمثل الأول خروجًا من التاريخ و عودة إلى الوقائع الأساسية بطريقة تهدف إلى اكتشاف بنيتها العميقة الدائمة في الحياة و الكائنات) [٧].

لذا حاول أن يصوّر الواقع اليمني في عصر " حكم الإمام " و كأنه أسطورة ، و كذا الحال بالحيز الذي قطن فيه اليمنيون في أثناء ذلك العهد ، صوّره هو الآخر و كأنه مكان خياليّ – بالضبط – كخيالية حيز " واق الواق " ، و لم يتوقف الأمر عند مسألة خيالية الظلم ، بل وصفه بالمأساة على أنّه نوع من أنواع المبالغة في توقيع المرارة .

٢- **البُعد الفلسفيّ** : تحقق هذا البُعد بصياغة المكان البديل لحياة الأبطال صياغةً توازي ملامح المدينة الفاضلة التي أسسها الفكر الفلسفي الإسلامي ، ولا سيما خطاب " الفارابي " الفلسفيّ .

وقد رصد هذا البُعدَ الدكتورُ عبد الحميد إبراهيم في تقديمه للرواية ، بقوله (وجاء الزبيري " استشهد سنة ١٩٦٥م ، وكتب روايته " مأساة واق الواق " سنة ١٣٧٩هـ وقام فيها برحلته إلى العالم الآخر ، امتاح فيها من التراث الإسلاميّ، و استعار كثيرًا من مواقف الإسراء و المعراج، وبنوع خاص عند حديثه عن طوائف المعذبين ، و الذين كانوا يلاقون العذاب من جنس العمل، والذي يهمنا من رحلته هو تصوره للجنة ، فقد كانت نموذجًا للمدينة الفاضلة التي يحلم بها ، وكانت امتداداً للتراث الشرقي الذي يركز على تغيير الداخل بالدرجة الأولى) [٨].

٣- **البُعد الدينيّ :** وهو الإطار العام الذي طغى على النصّ ، بحيث كان الملمح الرئيس الذي تتحرك في فضائه أحداث القصّ و شخوصه .

وقد أشار الدكتور عبد الحميد إلى جزء منه في نصّه السابق ، و بإضافة الأجزاء الدينية الأخرى ، يكون هذا البُعد مؤسَّسًا على :

أ- الجنة .

ب- ملامح سرد " قضية الإسراء و المعراج " المباركة .

ج- قضية الشهادة و كرامتها في عامل ما بعد الموت .

د- الفكر الصوفيّ و البحث عن التطهير الروحانيّ .

إذ تدور أحداث هذه الرواية في عالم روحاني مشبع بعبق الطابع الدينيّ ، ففيه يعرض الروائي بأحداث خيالية لانتقاله إلى الحياة الأخرى ، و لقائه بالشهداء الأبطال الذين شيّدوا معه معمار النضال بوجه عهد الإمام .

فقد نجا من مؤامرة تصفية أبطال الثورة ، لكنّ الآخرين قصفت أعمارهم بآلات التصفية التابعة لأذناب الإمام الحاكم حينذاك .

ويطمح الروائيّ بمتتاليات سرده أن :

- يُقنِع الآخرين من القرّاء : أنّ الذين قضوا نحبهم لم يذهبوا إلى عالم لا خير فيه و خالٍ من المتع و الكرامات ، بل انتقلوا إلى عالم مليء بالمشاهد و الملذات بنحو لاعين رأتها و لا أذن سمعتها و لا خطر على قلب بشر .

لذا هي غاية تحفيزية تتمثل بحفر التطلع في ذهنية القارئ لعقد مشاريع للنضال و الجهاد المستبدين و الظلمة .

- يحاول أن يعيش حلاوة العالم الذي انتقل إليه رفاقه ، و يأمُل أن ينال ما ناله؛ فضلاًعلى غاية التخلص من براثن الواقع المزري الجاثم على الصدور ، فالخلوّ من أجوائه المغبرة و

التحلي بنقاء عوالم الجنة ، هو سعي الى تجميل الآتي؛ و لو كان على مستوى الحياة بعد الموت .

وعلى هذا الأساس فالنصّ يجمع بين تقنيتين متضادتين من تقنيات المفارقة السردية ؛ هما :

- الاسترجاع .
- الاستشراف .

إذ يراد بالتقنية الأولى : (تقنية من تقنيات المفارقة السردية التي يستعين بها السارد لكسر التواتر الزمنيّ الآني ، بقطعه و النكوص – زمانيًّا – نحو أحداث ماضية) [٩].

أما التقنية الثانية فهي على الضدّ من مسار التقنية الأولى ، إذ يراد بها : (تقديم الأحداث اللاحقة و المتحققة في امتداد بنية السرد الروائيّ)[١٠] .

ويعدّ هذا المعمار البنائيّ ، معمارًا مغايرًا لمعمار البناء السرديّ في هياكل النصوص المنتجة في خطاب الرواية اليمنية .

فالروائيون يجعلون من تلك التقنيات على مسارات منتهكة لمسار القصّ الآنيّ ، بحيث لا تكون بناهما بنى رئيسة للقصّ ، بل تكون بنى متوالية ، وثانوية ، لبنى السرد الآنية الرئيسة ، و حتى لو جعلت بنى أولية ، فليس على سبيل الجمع مع الضدّ ، بل على سبيل تضمين الضد في بنياتها الرئيسة على نحو الثانوية و الفرعية و الانتهاك .

في حين جاء نصّ " مأساة واق الواق " جامعاً بين بنية " الاسترجاع " ، وبنية " الاستشراف " على أساس الجمع بينهما على أنهما بنيتان رئيستان لمتتاليات قصّ النصّ .

بحيث تحققت بنية " الاسترجاع " في مسار استذكار حياة الشهداء الأبطال الذين واكبوا مراحل نضاله ، و هم (الشهيد عبد الوهاب نعمان و الشهيد زيد الموشكي و الشهيد محمد صالح المسمري و الشهيد الضابط العراقي ج .ج – أي جمال جميل –) [١١].

أما بنية الاستشراف فتّمت على مسار متتاليات قصّ التحول من عالم الواقع المعيش إلى عالم الحياة بعد الموت : حيث الجنةُ و الشهداء المتميزون فيها .

وقد (حاول الزبيري استرجاع ماضيه النضاليّ و ماضي زملائه الشهداء بكونه أفضل بكثير من حاضر بلده لأن سكان الأمس كانوا يناضلون و لا يقبلون بالضيم ، أما سكان اليوم فعجزة لا يتحركون لنصرة أنفسهم ، فكيف بسعيهم للنضال من أجل الآخرين من أهل بلدهم .

ولم تكن ذاكرة الاسترجاع عند الزبيري على وتيرة واحدة بل كانت على ثلاثة أنماط:

١- انتقاد حاضره بعين ماضيه .

٢- انتقاد حاضر المناضلين بعين ماضيهم .

٣- انتقاد اجتماعيّ عامّ .

فنمط الذاكرة الأول أي " ذاكرة انتقاد حاضر الزبيري بعين ماضيه " تجسد بمقطع من مقاطع روايته و بالضبط حينما اجتاز مراحل تنويمه المغناطيسي الثلاث ، مرحلة التنويم المغناطيسي الأول التي كانت بداية الرحلة الروحية و المتمثلة بتنويمة الشيخ سعدان زكي من علماء الأزهر، و التنويمة الثانية التي انتقل بها من مرحلة عالم الأرواح الحارسة إلى عالم الأرواح المنعمة و التي كان أساسها الجدة لميس ، أما التنويمة الثالثة النقلة الأساسية التي نقلها علماء كانوا من أساسيات ثقافته الجهادية وهم الشيخ جمال الأفغاني و الشيخ محمد عبده و الشيخ عبد الرحمن الكواكبي ، هؤلاء الثلاثة الذي نقلوه إلى زملائه المناضلين المستشهدين الأربعة الذين ذكرناهم في سطور سابقة) [١٢].

وقد تحدد مسار المرحلة الأولى بسياسة الانتقاد لما مرّ عليه وضعه ووضع البلاد ، ولاسيما بعد أن خلت البلاد من ذوات نزيهة تسعى الى تحرير الخلق و الأرض من براثن المتسلطين و أذنابهم .

ففيه يغبط " الزبيري " زملاءه النضاليين على حسن حالهم : فهم في وضع جليل ، محمود ، مليء بالدعة و الراحة ، في حين ظل هو وحيدًا بلا سند و لا صديق وفيّ ، فكلّ مَنْ حوله ، إما خانع ، و إما خائن ، و إما متسلط .

لذا كانت الدعة التي غمرت زملاءه من الشهداء ، سببًا لعدم معرفته بهم في أول الأمر ، فهو يروي لحظة اللقاء تلك ، بأنه (لم أعرفهم وقد كان من المتعذر أن أعرفهم لأول مرة؛ لأن وجوههم كانت تشع و تتلألأ كأنها مخلوقات نورانية ، وكنت أرى البشر لا يبدو على ملامح وجوههم فحسب .. بل و على حركاتهم و أحاديثهم ، و الأريج العاطر المنعش الذي يتفاوح منهم ، وجوههم الضاحك المشرق من حولهم .. أقبلوا عليّ جميعًا يعانقونني بحرارة واحدًا واحدًا ، ويرحبون بمقدمي ، و لا يكادون يتحدثون فيما بينهم إلا بلغتهم الرمزية الخاصة ... وبرغم ما داخلني من الإعجاب بكل ما أراه و أسمعه داخلني شيء من الذعر و الأسى ، أما الذعر فلأني كنت كحيوان متوحش يفاجأ بحياة مدينة راقية تحز عليه و تغمره بالرفاهية إلا انه يرتعد من الخوف و النفور ، و أما الأسى فلخيبة الأمل التي صدمتني عند لقائي بهؤلاء المخلوقين فقد أيقنت ساعتئذ أني كنت على خطأ ، حينما جادلت أهل الأرض و زعمت لهم أن الشعب الذي أنتمي إليه شعب آدمي فإنما

رأيته الآن قد حقق مزاعم المتشككين في وجود شعبي كشعب من البشر ، وقلت في نفسي ربما أن الحورية ذات العشّ كانت قد خدعتني لتستدرجني و تجعلني ألمس الحقيقة بنفسي فأصحو من ضلال الإحساسات الشاعرية التي جعلتني أؤمن بانتمائي إلى شعب من البشر هو شعب " واق الواق " ... و لكن أين هو وطني الذي تنازعني نفسي إليه ؟ كنت في الأرض أشعر بالحنين إلى وطن الغامض وهاأنذا لعلني في الوطن الغامض ، و أكاد أجنّ من الضيق و النفور فأين المفر إذن ؟ وهذا الحنين الذي ما زلت أعانيه و أتعذب به ؟ لقد كنت في الأرض محرومًا حقًا من الانتماء إلى وطن ولكنني الآن محروم من الانتماء إلى أي أمل) [١٣].

وإلى جانب من أنه وصف اللقاء في فضاء الجنة ، لم يصوّره تصويرًا جموديًّا ، تقليديًّا لما هو قارّ في مخيال المسلمين ، بل حاول التغيير في ملامحه في الذهن ؛ لإضفاء :

- طابع المغاير لنسقية الوصف .
- توصيل مسار الحركية للمناضلين بين حركتهم في الحياة الدنيا و حياة ما بعد الموت .

فـ (الزبيري لم يقدم مدينته الفاضلة بطريقة تجريدية فلسفية ، تعتمد على شرح الأفكار و تحليلها ، بل صورها بطريقة فنية شاعرة تعتمد على الحركة و الإثارة ، بينما كان الشهداء في حوار ساخن و نقاش متبادل ، إذ يحسّ العربي أن هناك ضجة " لذيذة و لكنها مثيرة و مقصرة " على حدّ قوله[١٤]، فقد اكتشف أن الشهداء يتسللون واحدًا وراء الواحد ويذهبون إلى مكان آخر، وحين تساءل عن سرّ تلك الحركة المثيرة ، عرف أن " محكمة الحب " قد انعقدت في الجنة)[١٥].

أما المرحلة الثانية فتلخصت باستنهاض همم المجاهدين الأوائل لتغيير وضع البلد – وإن كانوا في عالم آخر غير عالم الدنيا – ؛ لأن الحكّام في الأرض عزلوا " اليمن " عن خريطة الأرض ، و رموها في مجال المأساة الخياليّ ، لذا يعدّ تركها ، خيانةً ، وهو لم يجد في الأرض من يستنصر به لاسترداد موقع وطنه الأول إلى الصدارة و ريادة العالم في عصر الفتوحات الفكرية في الحضارة الأولى ، حيث بلقيس و سد مأرب العظيم .

لذا استنصر بلفيف المناضلين الذين صانوا عرض البلد بدمائهم ، لعله يستطيع أن يستعيدهم إلى الأرض لصياغة نبض الشهادة من الجديد ، لأنه النبض الوحيد الذي يمكن له أن يغيّر الوضع المشين الصابغ لملامح الوطن ، هناك حيث مخيال " واق الواق " [١٦].

وفي هذا المفصل حاول أن يستجمع ملامح الشهداء كما هي في الأرض ، ليصبغ النصّ بصبغة تقرّب عالم القصّ من الواقعية ، بحيث يستدرج أفق انتظار القارئ ليستجيب لسلسة الأحداث المبتنية في هيكل سرده .

لذا كان المحاور المداعب للمناضلين دومًا " الشهيد عبد الوهاب نعمان " في الحياة الدنيا – قبل الشهادة – هو الحاضر بملامحه الأولى في حياة الجنة – بعد الشهادة – .

إذ (كان الشهيد عبد الوهاب نعمان يستمع إلى هذا الكلام وهو يبتسم ابتسامة الرجل الأريحي السمح اعتاد أن يتنازل عن حقوقه في الحياة و الموت فكان يعجب أن يتسمع إلى كلام إنسان يضع حقوقه في حياته موضع التقديس و قد نفذ صبره بعد هنيهة .

واندفع بوعي من أريحيته و طيبته وقال :

- إننا نعفيك يا ابني من حقوقنا في الخجل و ندعوك أن تدخل معنا بشخصية أخرى غير شخصيتك التي اختلقت لها المسؤوليات اختلاقًا ، إنني أنا دخلت السجن و أنت طفل صغير ولبثت ثلاثين عامًا بين السجن و بين إجازات صغيرة خارجة ، و لقد ذبحت بعد ذلك حقاً بعد أن كبرت أنت و بلغت سنّ النضال و أصبحت في رسالتنا و متضامنًا معنا في تحقيق الغايات المقدسة ، لكنك لست وحدك فإنه كان إلى جانبنا المئات من الناس سلا الأكثرون منهم عنا و انصرفوا لشؤونهم وانقلب البعض منهم ضد رسالتنا المشتركة وبقيت أنت ومجموعة قليلة من الأحبة مقيّدين بقيود ثقيلة من الوفاء ، وإنها لفرصة لك أن تجدنا نحن أصحاب الحق نعطيك إجازة من تلك القيود تدخل بها معنا الجنة بعض الوقت في خلسة من ضميرك وعلى غفلة من رفاقك الأحياء .

قال العزي :

- ولكن ما هذا يا شيخ عبد الوهاب .. ؟ أ نسيت يوم وداعنا الأخير ونحن في مطار الصافية حين فاجأتني بقلبك الكبير و أخبارك اليائسة إذ قلت لي :إننا قد أُحيط بنا ، و إن المأزق لا علاج له و لا مخرج منه وحدّثتني يومئذ و أنت مقبل عليّ بوجهك السمح المتهلل كما أراك الآن على مشارف الجنة قائلاً : إنك تعرف النتيجة المحتومة سلفًا و إن كل شيء سينهار سريعًا و أبديت لي غبطة عجيبة بأنك " ستذهب فداء و إننا سننجو و نبقى ضميره لحركة أخرى " وتلك هي نصّ العبارة التي قلتها يومئذٍ ، و أكدت تلك العبارة ، قائلاً :
- إنك مسرور وراضٍ و مطمئن إلى وفائنا للرسالة المشتركة أ فأنجو يا شيخ عبد الوهاب بعد ذلك من الذبح و من إغراء الشياطين الطغيان و تأتين أنت كقدّيس تدعوني إلى جحود حقّك بعقوق دمك .. ؟ وهبني يا شيخ عبد الوهاب تخلصت من حقوقكم أنتم الشهداء جميعًا فهل الأمر كلّه ينتهي هنا ... ؟ أن وراءكم حقوق الأحياء من الشعب وحقوق

الأجيال القادمة من سلالتهم وحقوق المطرودين المشردين من بلادهم و حقوق قدسية الأرض الأم التي جبلنا من تربتها) [١٧].

أما المرحلة الثالثة و الأخيرة فتخصصت باسترجاع عام لحال المجتمع اليمني في عهد ذلك المتسلط الأول .

وكان الاسترجاع ذاك دائرًا بين رفاقه القدامى إضافة إلى المجايلين لهم في حياة الجنة ، إذ قدمه أحد رفاقه (إلى رفاقه الثلاثة وهم يضحكون و يحاولون الدعابة معي ثم بدأ عليهم شيء من الجد و الاهتمام ولم أدر ماذا كانوا يأتمرون فيما بينهم ثم سكتوا قليلاً ، و إذا بأربعة أشخاص يهبطون من حيث لا أدري فصافحوني و شدوا على يدي ثم تحدثوا مع الشهداء هنيهة وقالوا لي لقد قررنا تنويمك إلى المرحلة الثالثة من مراحل الصفاء الروحي وعلى الفور ودون أن ينتظروا جوابًا مني نفخني أحدهم بما يشبه العطر من فمه و يا للعجب ! ماذا أصبحت . وماذا رأيت ...! انفرجت في عيني الدنيا كاملة كنت قد حيل بيني و بينها بحاجز صلب عنيد من النسيان ، ورأيت قصة حياتي كاملة وتذكرت الاسم الحقيقي لبلادي وقصة وخروجي منها وكيف انقطعت صلتي بشعبي عن طريق التنويم الوطني الذي نقلني من مستوى شعبي الذي لا يزال يعيش من عصر قديم إلى مستوى روح القرن العشرين وتذكرت كيف أني منذ يومئذٍ انقطعت صلتي بالشعب في مستواه و أخذت أكافح للارتفاع به إلى المستوى الذي وصلت إليه ، حتى اعتقدت بحكم إصرار الأمل و فاعلية التكرار ، أنني قد نجحت ، وما كادت تقوم حركة عام ٦٧هـ – ٤٨م وتنتكس حتى أصبت بإيماءة قطعت الصلة بيني و بين وطني و تاريخي ، وخرجت إلى أهل الأرض فكنت أجزع حين لا أرى وطني يشهدون له وجودًا إلا اسمه الأسطوري الذي تناقلته كتبهم و أقاصيص أسلافهم ومن ثم أنكروا له وجوداً حقيقيًا و لذلك كابدت المرارة الرهيبة ودخلت في نقاش مع الناس كأنني مجنون بين عقلاء ، أو عاقل بين المجانين ، و أخيرًا خطوت الخطوة الأخيرة وقدمت نفسي للشيخ سعدان زكي ، و ها أنا أحمد هذه الخطوة فقد آبت السكينة و السلام النفسي إلى حياتي وهاأنذا أرى كل الحقائق كأنما كانت مطوية عني في ملفات سرية نفثها في روعي هؤلاء العمالقة الأربعة و إذا هي كتاب مفتوح بين يدي) [١٨].

وقد كان الانتقاد السياسيّ هو الهمّ الرئيس لولوجه ذلك العالم الما ورائي فـ (السياسة كانت هي الموضوع الرئيسي الذي يشغله في الجنة ، وكان يبحث عن وطنه الضائع ، كما كان إقبال يبحث عن وجه الله ، لقد صاح بنومه لكي يسرع بتلك الرحلة الروحية " أنني مضطرم كالجحيم باللهفة إلى لقاء بلادي ، فاسرع بي يا أستاذي و اطلق روحي من محبسها ، فإني أكاد

أتمرد عليك وعلى جسدي ، فانطلق بلا منوم و لا تنويم " . إن السياسة عنده كما قلت مرة ، هي مزيج من الحب و الفن ، و المؤلف يتحدث عن قضايا بلاده ، و كأنه يمارس تجربة وجدانية أو تجربة فنية " و أضيف إلى ذلك هنا " تجربة صوفية " فإن الفن عند الزبيري تصوّف و إشراق ، يقول في قصيدة " لحظات الإشراق الفني " يتحدث عن السعادة بتجربته الفنية :

خذوا كل دنياكمو و اتركوا فؤادي حرًّا وحيدًا غريبًا

فإنني أضخمكم دولة و إن خلتموني طريدًا سليبًا

إنه يذكرنا بقول أحد الصوفيين ممن لا أذكر الآن اسمه " نحن في سعادة لو علم الملوك بها لقاتلونا عليها ") [١٩].

ممّا مرّ نلحظ ، أن الخلاص من الواقع في الخطاب اليمني ببُعده الديني ، لم يكن على نحو سلبي ، بل كان لغاية استنهاضية – تحفيزية ، تحفر في وجدان المواطنين المعاصرين ، الذين خنعوا أو غلب على أكثرهم صوت الخنوع ، ليحاورهم بملامح شخصيات نضالية قدمت ما قدمت من أجل صلاح البلاد ووضع أفرادها المظلومين ، وعلى الرغم من شهادتهم و انتقالهم عن الوجود المادّيّ الدنيويّ ، رقوا إلى مراتب أسمى من مراتبهم الدنيوية ، بحيث عاشوا في الحياة الأخرى في رغيد و نعمة و دعة .

المنفذ الثاني :

((الخلاص بالخيال العلمي))

" فكلّ حلم يمكن أن يحوله
أولئك الأقوياء قوة كافية
بالإرادة إلى خلق ، إذا
كانوا يؤمنون به "

برنارد شو

ذكرنا في مستهلّ هذا المفصل أن الثورة الصناعية الكبرى التي غزت أنحاء المعمورة ، أفرزت جملة عاهات نفسية أقلقت مضاجع البشرية ؛ للتغيرات المهولة التي سببتها تلك الطفرة في حمولة الإنسان المعنوية / المجردة .

لكنه في الوقت نفسه وسّع من مدارك البشر العلمية ، و فسح المجال أمام الخيال ليسيح في عوالم مترامية كانت مجالاً جديدًا لخلق عوالم بديلة أو موازية لعالم الواقع المعيش ، بزاويتين مهمتين :

- خلق عوالم أخرى لقراءة الآتي .
- خلق عوالم أخرى لنقد الواقع .

وكلاهما صورة من صور الخلاص من الواقع المعيش ، فـ (عصرنا هو عصر العلم الذي غزا بكشوفه و تطبيقاته آفاقًا ما كان يحلم أكثر العلماء تفاؤلاً و خيالاً بارتيادها ، كما حقق – في زمن قصير من التاريخ – ما لم تحققه البشرية كلها في تاريخها كله قبل عصر العلم . و العصر يبدأ بتلك الثورة التي قادها علماء القرن السابع عشر ، بدءًا من جاليلو و نيوتن وغيرهما ؛ فقد قلب جاليلو من خلال منظاره المطور التصورات القديمة عن مكان الأرض من الكون ؛ وكشف نيوتن عن قوانين الحركة و الجاذبية ... وهكذا توالت الكشوف العلمية ، وتطبيقاتها العملية ، التي توّجت بالرحلات إلى القمر ، وسفن الفضاء المتجهة إلى الكواكب الأخرى ، و الثورة الرائعة في مجال المواصلات و الاتصالات بين البشر في كل بقعة من المعمورة . وكان طبيعيًّا أن ينجم " أدب الخيال العلمي " – في الحقبة نفسها تقريبًا – عن هذه الثورة العلمية . وكان الطريف أن عالمًا ألمانيًّا هو الذي بدأ بالكتابة في هذا اللون من النتاج الأدبي ؛ فقد كتب عالم الرياضيات الألماني المعروف " كبلر " قصة باللاتينية اسمها " الحلم " نشرت بعد وفاته في سنة ١٦٣٤ ، أراد من خلالها أن يبسط كشوفه الخاصة في علم الفلك ؛ فهو أول من توصل إلى الحساب الصحيح لمدار

الكواكب . وكان كتاب كبلر مزيجًا من الخيال الأدبي و المعرفة العلمية عن الفضاء ؛ " ولهذا فقد بقى مصدر إلهام لكتاب كثيرين من المهتمين بفكرة غزو الفضاء ")[٢٠].

ولم تكن قراءتنا لنصّ " جغرافية الماء " [٢١] للروائي اليمني الشاب " عبد الناصر مجلي " ؛ لأنه النصّ المخالف لبنائية النصوص الروائية الأخرى من حيث الخلق السردي للعوالم ، أو لأنه روائي يتبع نمط " الخيال العلمي " في نسج نصوصه فقط ، بل ؛ لأنه حاول أن يغاير الروائيين الآخرين ممن ينتمي إلى الخطاب اليمني الروائي – خصوصًا – أو ممن ينتمي إلى الخطاب الروائي العربي – عمومًا – ، باختيار موضوعة الكتابة السردية .

فقد لحظنا أن أكثر الروائيين السابقين ممن تعرضنا لهم في مفاصل قرائية سابقة من دراسات نقدية سالفة ، ينظر إلى الآتي على أنه : مظلم ، وسوداوي ، ومبهم ، ذلك أنهم يقرؤون المستقبل بالوضع المزري للحاضر .

أما الروائي " مجلي " فيسعى الى قراءة المستقبل قراءة تفاؤلية – وإن كان مستندها الخيال – ، لكن مثل هذا الاشتغال يحفز النفس الإنسانية على قبول العيش ، و الطموح نحو ترقب الآتي الجميل ، أي إن وظيفة مثل هذه الأعمال في الدرجة الأولى : وظيفة إنسانية ، تحفيزية .

ومن المعروف أن روايات الخيال العلمي تنقسم (إلى قسمين : الأول منهما يدور حول مغامرات الإنسان في العوالم المجهولة ، و بخاصة غزو سكان الأرض للكواكب الأخرى ، أو غزو سكان هذه الكواكب للأرض ، أو مجرد السياحة بين الكواكب . و القسم الثاني يدور حول بناء عالم مثالي Utopia أو عوالم مضادة للمثالية " أو مرفوضة Anti Utopia ") [٢٢].

ولم تخرق رواية " جغرافية الماء " هذا الجوّ التصنيفي السائد ، بل قامت على أساس الغزو و الغزو المضاد أيضًا ، بتوليفة سردية قائمة على أساس الصراع لاسترداد الحقوق .

فالروائي حاول في نصّه هذا أن يحاكي موضوعة مهمة من منظومة الموضوعات الإشكالية في سياسة العصر – اليوم – .

فـ " الماء " سلاح جديد تسعى الى استعماله قوى الاستعمار الجديد ، بحيث تهدد الدول شحيحة المياه بكارثة الجفاف ، أو الموت عطشًا ، أو استمالة بعض الدول المتجاورة المتشاركة في إدارة منبع المياه و مصابّها ، بحيث تعمل على تحريض دول المنبع على بناء السدود و التحكم بالثروة المائية عبرها ، لتخنع دول المصبّ أو تحتدّ معها بصراع عسكري ، وفي كلا الأمرين تكون الدول الاستعمارية هي المنتفعة ؛ لأن خنوع الدول لعملائها : يعني خنوعها لها ، ولو بوساطة الدول العميلة ، أما لو دخلت الدول في نزاعات ، فهي المستفيدة أيضًا ؛ لأن الدول

المتنازعة ستضعف ، قبالة نماء قوتها ، فضلاً على تصريف ترسانة من الأسلحة للمتنازعين ، لتقوّي مستواها الاقتصادي .

وقد حاول الروائيّ استقدام هذه الموضوعة الحرجة استقدامًا خياليًّا ، وبباكورة من الأحداث المتوالدة على صفحات متتاليات الحكي .

إذ تدور أحداث قصّ هذا النصّ حول شخصية إنسانية علمية ، تسعى الى حماية الثروات المائية التي أخذت بالاضمحلال و التسرب إلى عوالم مجهولة ، لكن تلك الشخصية لم تضعف ، بل بالعكس سعت الى استرداد الحق المنتهب ، إذ عملت ليلَ نهار على تخطيط الخطط و ترسيم الأفكار لاختراع آلة تمكنه من اختراق حاجز الصدّ عن رؤية الخلق البشريين ، وفعلاً يتم له ذلك ، فيستطيع النفاذ إلى عالم الـ " لا مرئيات " ، ليتعرف أولئك المنتهبين لثروات الخلق ، وليكتنزوها في جعبهم الأنانية .

ولم يصفّ أولئك المنتهبون حياة هذا الرجل لأنهم يعلمون بمقدرته و طاقاته العلمية التي من الممكن أن ينتفعوا بها .

لكن ذلك الرجل لم يستسلم لمطاليبهم – على الرغم من رجاحة قوتهم – بل يأخذ بمحاورتهم بمفاصل " الفصل الثالث " الذي وسمه الروائي بـ " مناظرة في فضاء شديد الاتساع":

(– حكمنا عليك نحن حراس الماء بالعمل في المنابع المائية حتى تنتهي حياتك الطبيعية مع كامل حقوقك ككائن حي ما عدا حريتك !

- عفوًا . هذا حكم باطل لا تقره الشرائع التي أرسلها ربّ هذا الكون الوسيع إن كنتم تؤمنون به هذا الرب ثم إنني لم آت غازيًا ، فقد أتيت مدافعًا عن أهم حق لكل كائن حي في الأرض .. الماء الذي أخذتموه قسرًا .
- اسمع أيها الإنسان ، القضية ليست قضية إيمان ، المسألة برمتها تتعلق ببقاء عشرين مليارًا من بني جنسنا على قيد الحياة .
- وماذا عن بني جنسي الذين سرقتموهم ماءهم ؟!
- إنكم تقولون في تراثكم الأرضي ، إن الغاية تبرر الوسيلة ونحن لسنا كائنات لا إحساس لديها كما تظنّ لقد قمنا بعملية حسابية بسيطة استنتجنا بها أننا يجب أن نبقى مهما كان الثمن غاليًا ، وقد فعلنا ما رأيناه في صالحنا .
- حتى و إن مات الآخرون ؟!
- نعم ما دمنا نحن الأكثرية .

- لكن هذا ظلم عظيم !
- لم يكن هناك خيار آخر أمامنا أنتم أو نحن وقد اخترنا ، ولا تنسَ بأنك محظوظ لأنك ستعيش بيننا حتى يتوفاك من خلقك حيث كان بإمكاننا إعادتك من حيث أتيت لكننا رحمة بك و تقديرًا لعلمك الذي أوصلك إلى فضائنا المائي بصفته أول كائن ليس من جنسنا رأينا أنه من الأنسب لك أن تعيش معنا ، نحن نوابغ الكون .
- أي حظ تعنون وجنسي بأكمله سَيُبَاد !
- نستطيع أن نُحضر شخصًا واحدًا ليعيش معك زوجتك نحن تعلم بأنك متزوج و أنك تحب هذه الزوجة !
- لا أريد أحدًا معي فأنا لم آتِ للاستجمام و أنتم كما أزن تدركون ذلك !
- إنك شديد الذكاء فقد فطنت إلى أن مجيء زوجتك قد ينسيك بني جنسك لكن ماذا لو أضفنا إليها أهلك أختك مثلاً ؟!
- .....؟!
- لا تعاند و لا تحاول التذاكي فنحن نقرأ كل ما يدور في داخلك قبل أن تنطق به نحن لا نعلم الغيب فالخالق وحده من يقدر على ذلك لكننا نحلل الأفكار و نصل إلى النتائج في أقل من لمح البصر كن عاقلاً وعش معنا في هذه الجنة ؟
- قلت لكم لا أريد أحدًا وما دمتم تقرأون الأفكار فاعلموا أنني سأحاول قصارى جهدي إعادة مائنا المسروق إلى الأرض ولن أستسلم أو أستكين لإغراءاتكم حتى لو أدى ذلك إلى موتي) [٢٣].

ولكي يعمّق المأساة ، و التفاؤل بالخلاص في الآن نفسه ، طعّم النصّ بملامح القتلى الذين تحولوا إلى هيكل عظمي – علامة على المسافة الزمنية الطويلة التي تخللها طموح ذلك الرجل الساعي لاسترداد الحقوق – .

فمن صفحات كاتب مجهول ، وجد البطل رسالة لهيكل عظمي جاء فيها ، (من سوف يذكر حنان العناق ولذة القبلة الأولى من الذي سيأتي لاحقًا ويدرك هول ما حاق بالأرض ويعلم أن كل ما مرّ بحلوه ومرّه كان بمثابة الخميرة التي تشكلت منها عجينة الحياة و الآن ها هو كل شيء ينهار دفعة واحدة يضمحل كأنه لم يكن تحرقه حرارة طاغية لا ترحم ها هو كوكبنا الجميل يهوي أمامنا وفوق رؤوسنا من دون أن نستيطع فعل أيّ شيء يذكر ها هو حلمنا الكبير يبدو مثل وجه بريء مزقته الأمراض هل هذه نهاية بيتنا الذي آوانا وضمنا بين جوانحه آلاف السنين ؟! لا أدري

!! فثمة أمل يراودني بأن النهاية لن تحن بعد و إنما يجري أمامنا لا يمت إلى القيامة بأية صلة تذكر ، لا من قريب و لا من بعيد بل أن ما يجري هي حرب لا تكافؤ فيها شُنت ضدنا دون سابق إنذار ، حرب مجنونة ، يقودونا الذي يعرف قيمة الماء الذي يعرف أين مكانه ، ويعرف كيف أخذه و لماذا ؟ وحده يعلم أن القيامة ليس وقتها الآن لكنه صنعها لنا وها أنا أموت قبل أن أرى صدق توقعاتي لكنني سأقولها مرة واحدة في وجهه دون أن أخاف منه أو تهيبني سطوته العمياء ومقدرته الخارقة على المحو التدمير لقد كنت جبانًا أيها العدو كائنًا من كنت فتستحق الشفقة لأنك لا تدرك قوة إرادة الإنسان حتى و إن تصنعت ذلك و لا تعلم مدى مقاومته وعدم استسلامه للهزيمة) [٢٤].

وهذا النص المقتطع هو نوع من أساليب التنويع البنائي لهيكلية السرد ، و كذلك نوع من أنواع شحن عوالم السرد بما ينسجم و متطلبات القصّ .

و تتعقّد الأحداث و تتابع سلسلتها ، حتى يستطيع ذلك الرجل الطامح من بلبلة فكر أولئك السَّرَقة ، و يتمنون أنهم لم يستقدموه ، أو أن يسمحوا له باختراق الحواجز الفاصلة بين عالمهم و عالم الخلق البشري .

ففي متتاليات الفصل العاشر ، الموسوم بـ " خصوصية الماء و التراب " ، تعلن الكائنات الفضائية الغريبة عن تبرمها من سلوكيات ذلك الكائن البشري ، ولاسيما بعد أن استطاع أن يصطاد قلب إحدى فاتناتهم " سماثمانا " ، فقد صرّح أحدهم : (كنت دائمًا على حق ! فقد كنا في غنى عن السماح لذلك المخلوق البشري بالحضور إلى كوكبنا . كلا .. أنا لست حقوداً ، ولا أعرف معنى الحقد فكلنا في الأول و الأخير مخلوقات الله لكنني أؤمن بأن لكل كائن طريقة مختلفة في الحياة قد لا تتفق مع كائن آخر من نفس الجنس في نفس المكان الواحد الذي يعيشان فيه ، فكيف سيكون الحال إذا كان هذان الكائنان موجودين في فضاءين مختلفين يبعد كل منهما عن الآخر بمسافات هائلة تصعب على الذكر كانت هذه نظرتي للأمور كقائد دفاع يفكر بعقله و ليس بعواطفه) و (لقد قمت مرات كثيرة بمحاولة إقناع سماثمانا وكذلك فعل والدها حارس الماء الأعظم لكنها لم تنصت إلينا فحبسناها وواصلنا معاركنا الكلامية مع ذلك المخلوق حتى تم ترحيله إلى كوكبه .

ما أريد قوله هنا إنني حاولت قصارى جهدي التقرب إلى الغريب و محاورته كصديق بل لقد تدخل أكثر من مرة لصالحه في بعض الأمور وكنت من ضمن الذين وافقوا على إتاحة الفرصة للتحرك بيننا كنت أقصد من وراء ذلك جعله يتشرب قليلاً وحسب قدرته مما توصلنا إليه من علوم خصوصًا وإن عودته كان قد بُتّ فيها لكنه كان بنفر مني ، وله العذر في ذلك فقد قيدت حركته

في مرات عديدة وأمرت بمنعه من الاقتراب من بعض النقاط الهامة ، كنت أقوم بواجبي ولن يستطيع مخلوق أن يلومني خصوصًا و إن الإنسان طموح بطبعه وما يدريني ما الذي قد يفعله على الرغم من قراءتنا المسبقة لأفكاره إنها الحيطة فالإنسان كائن مزاجي يكره بعمق و يحب بعمق وأحياناً بدون إبداء أي سبب معقول ! أعجبني فيه ولاؤه الكبير لكوكبه وأدهشني تكوينه الداخلي البديع و الشديد الدقة والتصميم تمنيت لو كنا أصدقاء ، لكن تقربه الدائم من وريثة العرش كان يقلقني رغم أنه تمنع عنها في البداية عندما بادرته هي بعواطفها التي لا أستطيع تفسيرها .

لقد بهر بني جنسه عند عودته إليهم فلقد وضعنا في دماغه معلومات هائلة كانت له نعم العون في إعادة إعمار الأرض لقد جعله ذلك النجاح مخلداً في تاريخ الأرض عبر العصور)[٢٥].

وبعد أن استطاع ذلك الكائن البشري من استرداد حقوقه و حقوق الخلق من أيدي أولئك الخلق ، بدأت مأساة أخرى تطفو على سطح الأرض ، تهدد بانقراض عناصر حياتية أخرى لا تقلّ أهمية عن الماء ، ولم يثنِ هذا الأمر من عزيمة ذلك المجاهد ، بل بالعكس سعى مجددًا الى خوض نزاع جديد من أجل ملاحقة أولئك السَّرَقة الجدد لاسترداد حقوق الخلق من أيديهم .

إذ (كان أول شيء قمت بتجريبه عندما عدت إلى الأرض هو ذلك المثلث الصغير الذي كان بإمكانه إنزال المطر في أي مكان وعندما شاهدت المطر ينهمر على صحراء الربع الخالي بغزارة لم أصدق ما كنت أراه لكنه أي المثلث وقف عاجزًا أمام كارثة حلت بنا لاحقًا لا ندري مسببها !!

عدت أخيراً إلى الأرض بعد وداع حافل حضره حارس الماء الأعظم ، وكل حكماء كوكب الماء باستثناء سماثمانا كان وداعًا مؤثرًا ..

الوداع أيها الأرضي من دون لقاء يا أول و آخر غريب يصل إلى كوكبنا " كانت كلمات الحارس العظم الوداعية لا تزال ترن في أذني خصوصًا في هذه الأيام التي نواجه فيها خطرًا ماحقًا وكأنه يؤكد ضرورة اعتماد الإنسان على نفسه " وأبلغ جنسك الأرضي أن الحياة أثمن ما وهب الخالق الكبير لمخلوقته ، وعليهم أن يدركوا ذلك و إذا ما واجهتم خطر ما عليكم إلا الاعتماد على أنفسكم فأنتم لا تقلون ذكاءً أو مقدرة عن بقية المخلوقات هذا إذا لم تكونوا أكبر من ذلك بكثير لكن عليكم الإيمان بقدراتكم أولاً .

كانت كلمات لا تنسى وبعد ذلك الوداع المثير قاموا بإعادتي وبرفقتي ماؤنا الذي انتظره الناس طويلاً وهم غير مصدقين بعودته .

وجدت نفسي بجوار البحيرة التي انطلقت منها فتوجهت من فوري وكل أشواق العالم تضجّ بين جوانبي ، إلى البيت الذي افتقدته كثيرًا كنت أجري بكل سرعة أمتلكها لم يكن البيت بعيداً عن البحرية . استطعت خلال مساعدة الدول في إعادة ما دمره غياب الماء ، وبدا و كأن الكابوس قد زال عن صدورنا حتى اكتشفت في إحدى رحلاتي حول العالم بأن الأشجار أخذت تختفي دون أن تترك وراءها أي أثر كدت أصعق لهول المفاجأة لم يكن في الأمر صدفة كادت المفاجأة أن تقتلني فثمة غريم جديد قد غزانا كما يبدو ، الله يعلم مدى شره ، لم أنتظر بدوري ما قد يحدث ، و بدأت أستعد لمعركة لا أعلم نتائجها بعدو لا أدري أين ستقع !!!!) [٢٦].

فعمل " مجلي " السردي " جغرافية الماء " ، هو عمل ذو برنامج حكائي رامز يسعى الى تثبيت وظائف دلالية ، منها :

- تأكيد ضرورة الخلاص من الواقع المرير الذي يعيشه الخلق لا عن طريق الهروب السلبي ، بل لا بد من التفكير الجدّي بتغيير ملامحه .
- إن قوة العقل و العلم هما المنفذان الوحيدان اللذان يمكننا الاستناد إليهما في معركتنا لمكافحة السرقة و المردة من المخلوقات الطبيعية كالبشر أو المخلوقات الخارقة على أنها كائنات الفضاء .
- ضرورة إدانة الواقع المزري برصد نقاط الضعف و الدرن فيه ، ومحاولة معالجتها بتوؤدة و هدوء ، لنصل إلى المبتغى و المطمح الكبير الذي نسعى الى حيازته .

الخاتمة والنتائج :

لم يكن السعي نحو الخلاص من الواقع ، في الخطاب الروائي اليمني ، على وتيرة البطل السلبي الهارب ، المنهزم من المواجهة ، بل كان نسقًا صياغيًا يجمع بين بنائية الخلاص، و علامية التغيير .

فالخلاص عند روائيي اليمن ، يعني الخلاص التغييري لا الخلاص الهروبي ، فهي بذا ميزة تحسب لهم لا عليهم ؛ لأنها صياغة سردية جديدة طمحت لانتهاك السائد في نتاجات المبدعين ، و كذا الحال بالمطروح من بناءات حكائية اتباعية .

ففي النصّ الأول " مأساة واق الواق " كان البُعد الدينيّ هو المحرّك لإطار حركية الخلاص ، لكنه لم يكن خلاصًا انهزاميًا ، بل كان خلاصًا تغييريًا .

وكذا الحال بنصّ " جغرافية الماء " الذي استند إلى بُعد الخيال العلميّ ، لم يكن فيه بطل القصّ سلبيًا ، انهزاميًا ، غير قادر على المواجهة ، بل كان حركيًا ، طموحًا لاسترداد الحقوق المنتهبة .

وعليه تكون هناك قواسم مشتركة بين النصين ، يمكن تلخيصهما بالآتي :

١- وظيفة التحفيز و استنهاض الهمم في دواخل المواطنين ؛ لأن السكوت عن الحق –كما يصوره النصّان – مدعاة لضياع الكثير من الحقوق ، فالساكت :

- إما أن يدخل في فضاء العزلة و الخرافة .
- و إما أن يتحجر و تجفّ عروقه بسبب العطش و يصبح هيكلاً عظميًّا .

٢- وظيفة المغايرة لما هو سائد ، فالبناء السردي لنصّ " مأساة واق الواق " جمع بين المتضادات في مسار رصف الحدث ، فضلاً عن توليفته المرجعية لمتتاليات قصّه .

في حين انطلق الروائي " عبد الناصر مجلي " من قاعدة كسر السوداوية المصطبغ بها جدار الذوات العربية ؛ بسبب حالة الإحباط التي تجثو على صدورهم ، بحيث حوّل الآتي من معمار السوء إلى معمار الحسن ، ولكن شريطة أن نسعى الى تحصيله ، و إن كنا فرادى .

الهوامش :

[١] ملحق " تعاريف " : إعداد : محمد صهيب الشريف : ١٩٣ : ملحق بكتاب الإسلام و الغرب : دار الفكر – دمشق / دار الفكر العربي المعاصر – بيروت / ط ٢ ٢٠٠١م.

[٢] الهرب من الواقع في الرواية العربية الحديثة " النمط النفسي أنموذجاً " : د. باسم حميد : ٧٣ : مجلة الحكمة / ع ٢٢٤ – ٢٢٥ / صيف ٢٠٠٣م.

[٣] الإنسان و رموزه : كارل غوستاف يونغ : ترجمة : سمير علي : ٢٢ : وزارة الثقافة و الإعلام / بغداد / ١٩٨٤م، وقد أفاض الدكتور باسم حميد بتوصيف هذه الأزمة الإنسانية الحادة في بحثه : الهرب من الواقع : ينظر منه : ٧٣ – ٧٥ .

[٤] خمسة دروس في التحليل النفسي : سيجموند فرويد : ترجمة : جورج طرابيشي : ٤١ : دار الطليعة / بيروت / ط٣ / ١٩٨٦م .

[٥] أنماط و بناء الشخصية في الرواية العربية بالسودان : مصطفى محمد أحمد الصاوي : ٥٠ – ٥١ : مجلة الثقافة / س ١٠ / ع ٦٥ / أبريل ٢٠٠١م.

[٦] الهرب من الواقع : ٧٥ .

[٧] حول توظيف العنصر الأسطوري في الرواية المصرية المعاصرة : وليد منير : ٣١ : مجلة فصول / مج ٢ / ع ٢ / يناير – فبراير – مارس / ١٩٨٢م ، و ينظر : التفسير الأسطوري في النقد الأدبي : د. سمير سرحان : ١٠٠ و ما بعدها : مجلة فصول / أبريل / ١٩٨١م.

[٨]رواية مأساة واق الواق : المقدمة : ٨ : القاهرة / ١٩٦٠م.
[٩]حركية الفضاء الزمني في جسد الرواية : مشتاق عباس معن : ٣٩ : دائرة الثقافة و الإعلام / الشارقة / ط١ / ٢٠٠١م.
[١٠]جماليات التشكيل الزماني و المكاني لرواية الحواف للكاتب عزت الغزاوي : إبراهيم نمر موسى : ٣٠٩ : مجلة فصول / مج ١٢ / ع٢ / ١٩٩٣م.
[١١]مقدمة الرواية : ٨ .
[١٢]تحليق الذاكرة " قراءة في فضاء الزمن الروائي / الرواية اليمنية أنموذجاً " : علاء جبر محمد : ٥٩ : كتاب مقدم للنشر في اتحاد الأدباء اليمني .
[١٣] مأساة واق الواق : ٥٦ –٥٧ .
[١٤]م . ن : ١٩١ .
[١٥]رواية واق الواق : المقدمة : ٩ .
[١٦]ينظر : تحليق الذاكرة : ٦٠ – ٦١ .
[١٧]مأساة واق الواق : ٧٠ – ٧١ .
[١٨]م . ن : ٥٨ –٥٩ .
[١٩]م . ن : المقدمة : ٩ و ١٨ .
[٢٠]رواية الخيال العلمي و رؤى المستقبل : عصام بهي : ٥٧ : مجلة فصول : مج ٢ / ع ٢ / يناير – فبراير – مارس / ١٩٨٢ ، و ينظر : القصة العلمية الحديثة إلى أين : ي . هينجر : ٧٩ : مجلة الفكر المعاصر / ع ٥٢ / يونيه ١٩٦٩م.
[٢١]جغرافية الماء : عبد الناصر مجلي ، ونشرت هذه الرواية مسلسلة على ست حلقات في صحيفة " الثقافية " الأسبوعية بدءاً بالعدد : ٢٢١ / الصادر في ١١ / ١٢ / ٢٠٠٣ م ، وحتى العدد ٢٢٦ / الصادر في ١٥ / ١ / ٢٠٠٤ م.
[٢٢]رواية الخيال العلمي و رؤى المستقبل : ٥٨ .
[٢٣]جغرافية الماء : ٢٥ : الحلقة الثانية : ع ٢٢٢ / ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٣م.
[٢٤]م . ن : ٢٧ .
[٢٥]م . ن : ٢٤ : الحلقة السادسة و الأخيرة / ع ٢٢٦ / ١٥/ ١/ ٢٠٠٤م.
[٢٦]م . ن : ٢٧ .

المصادر

١. الإنسان و رموزه : كارل غوستاف يونغ : ترجمة : سمير علي : وزارة الثقافة و الإعلام / بغداد / ١٩٨٤م.

٢. تحليق الذاكرة " قراءة في فضاء الزمن الروائي / الرواية اليمنية أنموذجًا ": علاء جبر محمد، كتاب مقدم للنشر في اتحاد الأدباء اليمني .
٣. حركية الفضاء الزمني في جسد الرواية : مشتاق عباس معن : دائرة الثقافة و الإعلام / الشارقة / ط١ / ٢٠٠١م.
٤. خمسة دروس في التحليل النفسي : سيجموند فرويد : ترجمة : جورج طرابيشي:دار الطليعة / بيروت / ط٣ / ١٩٨٦م .
٥. مأساة واق الواق (رواية) ،محمد محمود الزبيري، القاهرة، ١٩٦٠.
٦. ملحق " تعاريف " : إعداد : محمد صهيب الشريف، ملحق بكتاب الإسلام و الغرب : دار الفكر – دمشق / دار الفكر العربي المعاصر – بيروت / ط ٢ ٢٠٠١م.

الدوريات والمجلات والجرائد

١.أنماط و بناء الشخصية في الرواية العربية بالسودان : مصطفى محمد أحمد الصاوي: مجلة الثقافة / س ١٠ / ع ٦٥ / أبريل ٢٠٠١م.
٢.التفسير الأسطوري في النقد الأدبي : د. سمير سرحان: مجلة فصول / أبريل / ١٩٨١م.
٣. جغرافية الماء (رواية) : عبد الناصر مجلي ، ونشرت هذه الرواية مسلسلة على ست حلقات في صحيفة " الثقافية " الأسبوعية بدءاً بالعدد : ٢٢١ / الصادر في ١١ / ١٢ / ٢٠٠٣ م، وحتى العدد ٢٢٦ / الصادر في ١٥ / ١ / ٢٠٠٤ م.
٤.جماليات التشكيل الزماني و المكاني لرواية الحواف للكاتب عزت الغزاوي : إبراهيم نمر موسى ، مجلة فصول / مج ١٢ / ع٢ / ١٩٩٣م.
٥.حول توظيف العنصر الأسطوري في الرواية المصرية المعاصرة : وليد منير ،مجلة فصول / مج ٢ / ع ٢ / يناير – فبراير – مارس / ١٩٨٢م .
٦. الخيال العلمي و رؤى المستقبل(رواية) : عصام بهي، مجلة فصول : مج ٢ / ع ٢ / يناير – فبراير – مارس / ١٩٨٢ .
٧.القصة العلمية الحديثة إلى أين : ي . هينجر ، مجلة الفكر المعاصر / ع ٥٢ / يونيه ١٩٦٩م.
٨.الهرب من الواقع في الرواية العربية الحديثة " النمط النفسي أنموذجًا ": د. باسم حميد: مجلة الحكمة / ع ٢٢٤ – ٢٢٥ / صيف ٢٠٠٣م.